

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦ - سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

هي مكية، لإقوله تعالى (١) «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ» إلى آخرها. وقوله (٢) «أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا وَعُلَمُوا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ» فقد روى أنهما نزلتا بالمدينة، وكان شعراؤه صلى الله عليه وسلم بالمدينة، حسان وكعب بن مالك وابن رواحة، رضى الله عنهم. وقال الداني: روى بسند صحيح أنها نزلت في شاعرين تهاجيا في الجاهلية، مع كل واحد منهم جماعة. فالسورة على هذا كلها مكية. انتهى.

وقال المهايى: سميت هذه السورة بها، لاختصاصها بتمييز الرسل عن الشعراء، لأن الشاعر، إن كان كاذبا فهو رئيس الغواة لا يتصور منه الهداية، وإن كان صادقا لا يتصور منه الافتراء على الله تعالى، وهذا من أعظم مقاصد القرآن، انتهى.

يشير إلى أن ذكر الشعراء فيها، لبيان أنهم في معزل عن الرسالة وتبرئة مقام الرسول صلوات الله عليه، عما افتروا عليه من أنه شاعر؛ فالسورة على هذا كلها مكية، ردًا لفرقتهم. ولما كان لفظ (الشعراء) عاما، جاز حمله على ما حكوه، لشموله له، لأنه نزل فيه خاصة دون غيره. وسيأتى، إن شاء الله تعالى، إيضاح ذلك. وهي مائتان وسبع وعشرون آية. قال ابن كثير: وقع في تفسير مالك المروى عنه، تسميتها (الجامعة).

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٢٤ - ٢٢٧]. (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٩٧].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (طسّم)

« طسّم » سبق في سورة البقرة الأقوال في هذه الفواتح ، وأن الأكثر على أنها اسم للسورة ، فحله الرفع على أنه خبر لمحذوف ، وهو أظهر من رفعه على الابتداء . أو النصب بتقدير : اقرأ ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ)

« تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ » الإشارة إلى السورة ، وما فيها من معنى البعد للتعظيم ، وحله الرفع على الابتداء ، خبره ما بعده أو يدل ماقبله . والمراد (الكتاب) القرآن . و(المبين) الظاهر إعجازه وآيته وبرهانه . من (أبان) بمعنى بان - أو المبين للحق من الباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (لَعَلَّكَ بَخِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ)

« لَعَلَّكَ بَخِيعٌ » أى قاتل « نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » أى لعدم إيمانهم . و(لعل) للإشفاق . أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة على عدم إيمانهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ)

« إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ » أى ماجةة لهم إلى الإيمان ، قاسرة عليه « فَظَلَّتْ »

أَعَنَتْهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ « أى منقادين، والجملة مستأنفة لتعليل ما يفهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور، ببيان أن إيمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتماً، فلا وجه للطمع فيه، والتألم من فواته. قاله أبو السعود.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥] (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ)

« وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ » أى مكذبين، استهزاء وإصراراً على ما كانوا عليه من الكفر. وتقدم نظير الآية فى أول سورة الأنبياء، وتحقيق معنى قوله تعالى (محدث) فتذكر.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦] (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ)

« فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ » أى أحواله الباهرة وشؤونه القاهرة، وظهور أعلامه، وبقاء أيامه. وفيه وعيد لهم بحلول النذر بهم، ونزول الصغار وقتئذ بدارهم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧] (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ)

« أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ » أى صنف مرضى

كثير المنافع.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » لصفهم اختيارهم إلى جانب الكفر ، وعدم تدبرهم في هذه الآيات .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى فهو القادر على الانتقام منهم بلا ممانع ، والرحيم بإمهاله وحلمه عنهم ، فلينتبهوا قبل أن يحل بهم ما حلّ بفرعون وقومه ، ولذا استأنف نبأ موسى عليه السلام معه ، بقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ اتَّبِعْ أَتَىٰ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[١١] (قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ)

[١٢] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ)

[١٣] (وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ)

« وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ اتَّبِعْ أَتَىٰ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي » أى فى أداء الرسالة ، فى بسطة من المقال « فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ » أى ليوازرني ويشدّ به عضدى . والمفعول محذوف ، أى ملكا أو جبريل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)

[١٥] (قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَّا بآيَاتِنَا ، إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ)

« وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ » وهو قتل القبطى ، المبسوط فى غير هذه السورة « فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا » أى لا تخف إنك من الآمنين « فَأَذْهَبَا بِمَا يَنْتَظِرَانِ إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ » مزيد تسلية لهما ، بكال الحفظ والنصرة .

قال أبو السعود: مثل حاله تعالى بحال ذى شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع ما يجرى بينهم، لئلا أولياءه ، ويظهرهم على أعدائهم ، مبالغة فى الوعيد بالإعانة . انتهى .
ولو قيل هو كناية عن ذلك، كان أولى . لجواز بقاء المعنى الحقيق معها، وهو هنا كذلك . فهو تعالى مستمع لهما وحافظ وناصر .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٧] (أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » ليتحرروا من عبوديتك وعذابك المهين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ)

[١٩] (وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)

« قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعَلْتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ » يعنى قتل القبطى . « وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أى بنعمتى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (قَالَ فَعَلْتَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ)

« قَالَ فَعَلْتُمَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ » أى الجاهلين بكون الوكزة مفضية إلى القتل .
أو الذاهبين عن صواب الحـلم والعمو والدفع بالأحسن .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ
الْمُرْسَلِينَ)

« فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ » أى تقتلونى على القتل الخطأ، فنجانى الله منكم، وزادنى
إنعاماً « فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا » أى حكمة أو نبوة « وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ » أى لإبطال
دعواك الربوبية، واستئصال شبه ما عليه قومك من الوثنية. وطلب إرسال قومى إلى مواطنهم
الأصلية ، وقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ » إبطال لمنته عليه فى التربية ،
بيان أنها فى الحقيقة نعمة . لأنه كان اتخذ بنى إسرائيل ؛ عبداً مسخرين فى شؤونه ،
مذللين لأمره ، مقهورين لعسفه . وموسى عليه السلام ، وإن لم ينله من ذلك مانالهم ، إلا أنه
لما كان منهم ، فكأنه وصل إليه ، وحلَّ به ، كما قيل (وظلم الجار إذلال الجير) أى لا يفى
إحسانك إلى رجل منهم بما أسأت إلى مجموعهم ، وما أنا إلا عضو منهم . وفى فخواها تقريره
بالكبرياء المتناهية ، والقسوة البالغة ، والسلطة الغالية التى من ورائها الفرج القريب ،
والخرج العجيب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ)

[٢٤] (قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ)

[٢٥] (قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ - أَلَا تَسْتَمِعُونَ » أى لهذا النبا العجيب ، وهو توحيد المعبود. وإنما عدّه جديراً بأن يتمعّبوا منه، لأنهم، على ما حقه المؤرخون، غلوا في عبادة الأصنام وتعميد الآلهة غلواً أربوا على كل من سواهم في الضلال . فكانوا يسجدون للشمس والقمر ، والنجوم ، والأشخاص البشرية ، والحيوانات ، حتى الهوام ، وأدنى حشرات الأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ)

[٢٧] (قَالَ إِنْ رَسُوكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ)

[٢٨] (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ)

« قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنْ رَسُوكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ

لَمَجْنُونٌ » أى لكونه يدعو إلى خلاف ما عقل عن الآباء .

« قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ » أى شيئاً ما، أو إن

كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلته . وفيه إيذان بغاية وضوح الأمر، بحيث لا يشتبّه

على من له عقل في الجملة ، وتلويح بأنهم بمعزل من دائرة العقل، وإنهم المتصفون بما رموه عليه

السلام به من الجنون .

تنبیه :

ذهب بعض المفسرين إلى أن فرعون كان من المعطلة، لا يقر بخالق، ولا يعترف بمعبود.

لظاهر قوله ^(١) (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) وأن قومه كانوا لا يؤلهون سواه .
قال ابن كثير : ومن زعم من أهل المنطق أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط . فإنه لم يكن
مقراً بالصانع ، حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالسكاية فيما يظهر . انتهى .
وقد منا أنه حقق الاكتشاف الصحيح والتاريخ الوثيق ، أنه كان من الوثنيين الغالين .
وأن له ولقومه عدة معبودين علويين وسفليين .

وعليه فمعنى قوله (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) أى مطاع عظيم ، وكانوا لا يتحاشون
من إطلاق الإله على الجبار المسيطر . فبقى سؤاله بما يحتمل أن يكون على نهج القاعدة المنطقية ،
من طلب الاكتناه ، وتعجبه من جوابه ، ثم رميه بالجنون ، ثانياً ، لدوله عن الكنه إلى
الأثر . ويحتمل أن يكون لتعرفه من جهة وحدته في ربوبيته التي ادعاها موسى ، وأن تعجبه
لما شاهد من الجد في الدعوة والثبات عليها ، والصدع بما يؤلم عظمته ، وبنمز جبروته ؛ وهذا
هو الذى أذهب إليه ، فإن التوم بمعزل عن أن يعجبوا لسكون الجواب كان بالرسم لا بالحد ،
إذ هو اصطلاح لفئة خاصة ، ومع هذا فالنظم يحتمله ولا ياباه . وقد عول عليه كثير من أهل
النظر ، ولا بأس بأن نأثر شيئاً من لطائفهم فيه .

قال الرازى : السؤال ب(ما) طلب لتعريف حقيقة الشيء . وتعريف حقيقة الشيء إما أن
يكون بنفس تلك الحقيقة ، أو بشيء من أجزائها ، أو بأمر خارج عنها ، أو بما يتركب من الداخل
والخارج . أما تعريفها بنفسها فمحال ؛ لأن المعرفة معلوم قبل المعرفة . فلو عرف الشيء بنفسه
لزم أن يكون معلوماً قبل أن يكون معلوماً ، وهو محال . وأما تعريفها بالأمر الداخلية فيها ،
فهاهنا في حق واجب الوجود محال ، لأن التعريف بالأمر الداخلية ، لا يمكن إلا إذا كان المعرفة
مركباً ، وواجب الوجود يستحيل أن يكون مركباً ؛ لأن كل مركب ، فهو محتاج إلى كل
واحد من أجزائه . وكل واحد من أجزائه فهو غيره ؛ فكل مركب محتاج إلى غيره . وكل
ما احتاج إلى غيره فهو ممكن لذاته . وكل مركب فهو ممكن ، فاليس بممكن يستحيل أن

(١) [٢٨ / القصص / ٣٨] .

يكون مركباً . فواجب الوجود ليس بمركب ، وإذا لم يكن مركباً استحال تعريفه بأجزائه . ولما بطل هذان القسمان ، ثبت أنه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود ، إلا بلوازمه وآثاره .

ثم إن اللوازم قد تكون خفية ، وقد تكون جلية . ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية ، بل لابد من تعريفها باللوازم الجلية . وأظهر آثار ذات واجب الوجود، هو هذا العالم المحسوس ، وهو السموات والأرض وما بينهما .

فقد ثبت أنه لا جواب البتة لقول فرعون (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) إلا ما قاله موسى عليه السلام ، وهو أنه رب السموات والأرض وما بينهما . فأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ) فمعناه إن كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات إلى موجود واجب الوجود ، فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه إلا بما ذكرته . لأنكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات إلى الواجب لذاته ، وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق ، وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه إلا بآثاره . وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء ، وما ذاك إلا السموات والأرض وما بينهما . فإن أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال ، إلا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق ، قال فرعون لمن حوله (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) وإنما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى ، يعني أنا أطلب منه الماهية ، وخصوصية الحقيقة ، وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية .

وتمام الإشكال أن تعريف الماهية بلوازمها ، لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية ، وذلك لأننا إذا قلنا في الشيء أنه الذي يلزمه اللازم الفلاني ، فهذا المذكور ، إما أن يكون معرفاً مجرد كونه أمراً ما يلزمه ذلك اللازم . أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه اللزومية والأول محال . لأن كونه أمراً يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفاً . فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفاً لنفسه ، وهو محال . والثاني محال ، لأن العلم بأنه أمر ما ، يلزمه اللازم الفلاني ، لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية اللزومة ، لأنه لا يمنع في العقل اشتراك

الماهيات المختلفة في لوازم متساوية. فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي ، لا يفيد معرفة نفس الحقيقة، فلم يكن كونه رباً للسموات والأرض وما بينهما جواباً عن قوله (وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) فأجاب موسى عليه السلام بأن قال (رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى) وكأنه عدل عن التعريف بمخالفة السماء والأرض ، إلى التعريف بكونه تعالى خالقاً لنا ولآبائنا . وذلك لأنه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والأرضين واجبة لذواتها، فهي غنية عن الخالق والمؤثر. ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده ، كونهم واجبين لذواتهم . لما أن المشاهدة دلت على أنهم وجدوا بعد العدم ، ثم عدموا بعد الوجود ، وما كان كذلك استحالة أن يكون واجباً لذاته . وما لم يكن واجباً لذاته ، استحالة وجوده إلا لمؤثر . فكان التعريف بهذا الأثر أظهر ، فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الأول ، إليه . فقال فرعون (إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) يعني المقصود من سؤال (ما) طلب الماهية ، وخصوصية الحقيقة . والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية ، فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون ، لا يفهم السؤال فضلاً عن أن يجيب عنه .

فقال موسى عليه السلام (رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فعدل إلى طريق ثالث أوضح من الثاني ، وذلك لأنه أراد بالشرق طلوع الشمس وظهور النهار ، وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار، والأمـر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب ، لا يتم إلا بتدبير مدبر ، وأما قوله (إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) فكأنه عليه السلام قال : إن كنت من العقلاء ، عرفت أنه لا جواب عن سؤالك إلا ما ذكرت ، لأنك طلبت مني تعريف حقيقته بنفس حقيقته، وقد ثبت أنه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته. فلم يبق إلا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته . وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته ، فقد ثبت أن كل من كان عاقلاً ، يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال إلا ما ذكرته. ثم قال الرازي : وقد بينا في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى^(١) : (وَهُوَ الْقَاهِرُ

(١) [٦ / الأنعام / ١٨] .

فَوْقَ عِبَادِهِ) (أن حقيقة الإله سبحانه من حيث هي ، هي غير معقولة للبشر . انتهى .
وقال الإمام ابن حزم في (المِلَل والنَحَل) في الكلام في المائة : ذهب طوائف من المعتزلة إلى
أن الله تعالى لا مائة له . وذهب أهل السنة وضرار بن عمرو ، إلى أن الله تعالى مائة . قال ضرار :
لا يعلمها غيره . قال ابن حزم : والذي نقول به ، وبالله تعالى التوفيق ، أن له مائة هي إنيته نفسها ،
وإنه لا جواب لمن سأل : ما هو الباري ، إلا ما أجاب به موسى عليه السلام ؛ إذ سأله
فرعون (ومارب العالمين) ؟ ونقول أنه لا جواب ههنا لا في علم الله تعالى ولا عندنا ، إلا ما أجاب
به موسى عليه السلام . لأن الله تعالى حمد ذلك منه وصدق فيه . ولو لم يكن جواباً صحيحاً
تماماً لا نقص فيه ، لما حمده الله تعالى .

ثم قال : ههنا تقف ولا نعلم أكثر . ولا ههنا أيضاً شيء غير هذا ، إلا ما علمنا ربنا
تعالى ، من سائر أسمائه ، كالعليم والتقدير والمؤمن والمهيمن وسائر أسمائه .

قال تعالى (١) : (وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ) إذ كل ما أحاط به العلم فهو متناه محدود
وهذا منقضى عن الله عز وجل ، وواجب في غيره ، لوقوع العدد المحاط به في أعراض كل مادونه
تعالى ، ولا يحاط بما لا حدود له ولا عدد له . فصيح يقيناً أننا نعلم الله عز وجل حقاً ، ولا نحيط به
علماً . انتهى ملخصاً .

ولما سمع فرعون تلك المقالات البنية على أساس الحكم البالغة ، وشاهد شدة
حزم موسى عليه السلام وقوة عزمه على دعوته ، عدل عن خطاة الإنصاف إلى الاعتساف ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قَالَ لَنْ أُتَّخَذَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ)

[٣٠] (قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ)

[٣١] (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

(١) [٢٠ / طه / ١١٠] .

- [٣٢] (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)
 [٣٣] (وَنَزَعَ يَدَهُوَ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ)
 [٣٤] (قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُوَ - إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ)
 [٣٥] (يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)
 [٣٦] (قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)
 [٣٧] (يَا تُوكَّ بِكُلِّ سِحَّارٍ عَلِيمٍ)
 [٣٨] (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ)
 [٣٩] (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ)

« قَالَ لِمَنْ أَنْخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْمَلَنكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ * قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ - إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُوَ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ * قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُوَ - إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجَاهُ وَأَخَاهُ » قريء بهمز وبدونه ، وهما لغتان . يقال أَرَجَاتُهُ وَأَرْجِيته إذا أَخْرته . والمعنى أَخْرها وَمناظرتهما لوقت اجتماع السحرة « وَأُبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ » أى شَرَطًا بِحشرون السحرة ، أى يجمعونهم عندك « يَا تُوكَّ بِكُلِّ سِحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ » أى لرؤية ما يعارض معجزة موسى . وكان خَامَرَ فؤادهم عجب منها واندهاش . والاستفهام مجاز عن الحث والاستعجال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْهُمْ الْغَالِبِينَ)

[٤١] (فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)

[٤٢] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِمَنْ أَلْمَقَرَّيْنَ)

[٤٣] (قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ)

[٤٤] (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)

[٤٥] (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

[٤٦] (فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ)

« لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا مِنْهُمْ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ

أَنْ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لِمَنْ أَلْمَقَرَّيْنَ * قَالَ

لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ » أى تبتلع ما موهوا به إفسا

وزورا « فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ » أى على وجوههم منقادين له بالإيمان ، لعلمهم بأن

مثله لا يتأتى بالسحر . وفيه دليل على أن منتهى السحر تمويه وتزيق يخيل شيئاً للاحقيقة له ،

وأن التبخرى فى كل فن نافع وإن لم يكن من العلوم الشرعية ، فإن هؤلاء السحرة ، لتبخرهم فى

علم السحر ، علموا حقيقة ما أتى به موسى عليه السلام ، وأنه معجزة . فانتفعوا بزيادة علمهم

لأنه أداهم إلى الاعتراف بالحق والإيمان ، لفرقهم بين المعجزة والسحر . قاله القاضى

والشهاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[٤٨] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ)

[٤٩] (قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ وَقَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي

عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ

مِّنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ)

[٥٠] (قَالُوا لَا ضَيْرَ ، إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ)

[٥١] (إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا إِنَّ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ)

« قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ * قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ وَقَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ

لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ » أي فعلكم شيئاً دون شيء ، ولذلك غلبكم .

أو فواعدكم ذلك وتواطأتم عليه . أراد به التلبيس على قومه ؛ كي لا يعتقدوا أنهم آمنوا على بصيرة وظهور حق .

« فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ، لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خَلْفٍ » أي جانبيين متخالفين .

« وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ » أي لا ضرر علينا في ذلك ،

بل لنا فيه أعظم النفع ، لأننا بفعلك هذا وصبرنا عليه ، شهادة على حقيقته ، إلى ثوابه ورحمته

راجعون ، فننقلب خير منقلب ، شهداء سعداء « إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا » أي

لأن « كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ » أي من أظهر الإيمان كفاحا ، مجاهرة بالحق بلا تقيية . ثم أشار

تعالى إلى خروج موسى بقومه من مصر بإيجائه إليه . وكان إذن فرعون له بذلك بعد ما أراه

الآيات البينات ثم ندم عليه ، فأتاه الإذن الإلهي به ، كما قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ)

«وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ» أى سِر بهم ليلاً، فإنه إذا وصل خبر سيركم إلى فرعون، لابد أن يتبعكم بجنوده لإرجاعكم، إلا أنكم تقدمونه ولا يدرككم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)

«فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ» أى حين أخبر بسراهم «فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ» أى جامعين

لعسكره، قائلين ما يقلل به الأعداء في أعين الجنود :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٤] (إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[٥٥] (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ)

[٥٦] (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ)

[٥٧] (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[٥٨] (وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ)

«إِنَّ هَؤُلَاءِ» أى بنى إسرائيل الخارجين «لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ» أى يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا من مخالفة أمرنا والخروج بغير إذن منا «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ» أى من مكرهم وسعيهم بالفساد في الأرض «فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكَنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ» يعنى : المنازل الحسنة والمجالس البهية .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« كَذَلِكَ » إشارة إلى مصدر ، أى مثل ذلك الإخراج أخرجناهم ، فهو في محل نصب صفة لمصدر مقدر ، أو هو خبر لمخوف ، أى الأمر كذلك .

قال الشهاب : وإذا قدر (الأمر كذلك) فالمراد تقريره وتحقيقه ، والجملة معترضة حينئذ كالتي بعدها . « وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ » . قال الشهاب : هو استعارة ؛ أى ملكناها لهم تملك الإرث بعد زمان . وكان العاقبة ، لما كانت لهم ، صاروا كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)

« فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » أى لحقوهم وقت شروق الشمس .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ)

[٦٢] (قَالَ كَلَّا ، إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[٦٣] (فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانفَلَقَ

فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)

« فَلَمَّا تَرَاءَ الْجُمُعَانَ » أى تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر « قَالَ أَصْحَبُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ » أى للحقون « قَالَ كَلَّا » أى لن يدركوكم فإن الله وعدكم بالخلاص منهم « إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ » أى لطريق النجاة منهم . « فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ

أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَأَنْفَلَقْ «أى فضر به فانفلق» فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ «
أى كل جزء متفرق منه كالجبل الكبير .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَأَزَلَفْنَا ثَمَّ الْأَخْرِينَ)

[٦٥] (وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ)

[٦٦] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ)

[٦٧] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[٦٨] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« وَأَزَلَفْنَا » أى قربنا « ثَمَّ » أى حيث انفلق البحر « الْأَخْرِينَ » يعنى قوم فرعون ،
أى قدمناهم إلى البحر حتى دخلوا على أثر بنى إسرائيل « وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ وَأَجْمَعِينَ »
أى بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا . « ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِينَ » أى بإطباقه
عليهم « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً » أى لعبرة « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ » أى مع مشاهدة
هذه الآية العظمى التى توجب تصديقه بعدها فى كل ماجاء به . منهم من بقى على كفره كبقية
القبط . ومنهم من عصاه واقترح عليه ما اقترح كبعض بنى إسرائيل . وفيه تسايمة للنبي
صلوات الله عليه . ووعده ووعيد لمن عصاه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ)

[٧٠] (إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ)

[٧١] (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَكْفِينَ)

[٧٢] (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ)

[٧٣] (أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ)

[٧٤] (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)

« وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على مشركى العرب « نَبَأُ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ » أى ما الذى تدعونه وتلجئون إليه . وكان عليه السلام يعلم أنهم عبدة أصنام ، ولكنه سألهم ليريهم ، أن ما يعبدونه ليس من استحقاق العبادة فى شىء « قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُّ لَهَا عَافِيَةً » أى مقيمى على عبادتها لانتخطاها إلى غيرها . « قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ » أى مثل عبادتنا يعبدون ، فقلنا هم .

قال أبو السعود: اعترفوا بأنها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرءة . واضطروا إلى إظهار أن لاسندهم سوى التقليد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٧٦] (أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ)

[٧٧] (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[٧٨] (الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ)

[٧٩] (وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ)

[٨٠] (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

[٨١] (وَالَّذِي يُمَيِّتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ)

« قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَاَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ * فَمَا نَهَىٰ عَنْهُمُ الْعَدُوَّةَ لِي * أَى أَفَأَبْصَرْتُمْ ، أَوْ أَنْتُمْ فَعَلْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَهُ أَنْتُمْ وَسُلْفُكُمْ . فَأَنهَمُ بِغَضَائِي « الْإِلَهِاتِ الْعَالَمِينَ » أَى لَكِن رَبِّ الْعَالَمِينَ لَيْسَ كَذَلِكَ ، فَإِنَّهُ وَلِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، لَا أَعْبُدُ غَيْرَهُ . ثُمَّ بَرَهَنَ عَلَىٰ مَوْجِبِ قَصْرِ عِبَادَتِهِ عَلَيْهِ تَعَالَىٰ بِقَوْلِهِ « الَّذِي خَلَقَنِي فَهَوَّ يَهْدِينِ » أَى إِلَىٰ كُلِّ مَا يَهْمُنِي مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، فَإِنَّهُ تَعَالَىٰ وَحْدَهُ يَهْدِي كَلَامًا لَمَّا خَلَقَ لَهُ . وَالْمَوْصُولُ صِفَةُ (رَبِّ) وَجَمَلُهُ مُبْتَدَأٌ وَمَا بَعْدَهُ خَبْرٌ - غَيْرُ حَقِيقٍ بِجَزَالَةِ التَّنْزِيلِ . قَالَهُ أَبُو السَّعُودِ .

« وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي » أَى يَرْزُقُنِي بِمَا سَخَّرَ وَيَسَّرَ مِنَ الْأَسْبَابِ السَّمَاوِيَّةِ وَالْأَرْضِيَّةِ ، فَسَاقِ الْمِزْنَ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ وَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ وَأَخْرَجَ بِهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ، وَأَنْزَلَ الْمَاءَ عَذْبًا زَلَالًا لِيَسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقَ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا .

« وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي » أَى إِذَا وَقَعَتْ فِي مَرَضٍ فَإِنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شِفَائِي أَحَدٌ غَيْرَهُ بِمَا قَدَرَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمَوْصُولَةِ إِلَيْهِ . وَإِنَّمَا نَسَبَ الْمَرَضَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَالشِّفَاءَ إِلَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ ، مَعَ أَنَّهُمَا مِنْهُ ، لِمُرَاعَاةِ حَسَنِ الْأَدَبِ مَعَهُ تَعَالَىٰ . بِتَخْصِيصِهِ بِنِسْبَةِ الشِّفَاءِ الَّذِي هُوَ نِعْمَةٌ ظَاهِرَةٌ إِلَيْهِ تَعَالَىٰ كَمَا قَالَ الْخَضِرُ ^(١) « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعْيِبَهَا » وَقَالَ ^(٢) « فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا » وَكَقَوْلِ الْجِنِّ فِي آيَةِ ^(٣) « أَشْرُّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا » وَلِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ أَسْبَابِ الْمَرَضِ يَحْدُثُ بِتَفْرِيطِ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي مَطَاعِمِهِ وَمَشَارِبِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَمَنْ ثُمَّ قَالَتْ الْحِكْمَاءُ : لَوْ قِيلَ لِأَكْثَرِ الْمَوْتَىٰ : مَا سَبَبَ آجَالَكُمْ ؟ لَقَالُوا : التَّخَمُّ .

« وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِينِي » فَإِنَّهُ هُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يَعْمِدُهُ ، لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ ذَلِكَ أَحَدٌ سِوَاهُ . فَإِنْ قِيلَ إِنَّ الْمَوْتَ قَدْ يَكُونُ بِتَفْرِيطِ الْإِنْسَانِ ، وَقَدْ أَضَافَهُ تَعَالَىٰ إِلَىٰ نَفْسِهِ ، فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ نِسْبَةِ الْمَوْتِ وَنِسْبَةِ الْمَرَضِ فِي مَقْتَضَى الْأَدَبِ ؟ أَجِيبُ كَمَا فِي (الانتصاف) : بِأَنَّ الْمَوْتَ

[١٨ / الكهف / ٧٩] . [٢] [١٨ / الكهف / ٨٢] . [٣] [٧٢ / الجن / ١٠] .

قد علم به بأنه قضاء محتموم من الله تعالى على سائر البشر ، وحكم عام لا يخص ، ولا كذلك المرض فكم من معافي منه قد بغته الموت ؛ فالتأسي بعموم الموت لعله يسقط أثر كونه بلاء ، فيسوغ في الأدب نسبتبه إلى الله تعالى . وأما المرض ، فلما كان مما يخص به بعض البشر دون بعض ، كان بلاء محققاً . فاعتضى العلوّ في الأدب مع الله تعالى ، أن ينسبه الإنسان إلى نفسه ، باعتبار ذلك السبب الذي لا يخلو منه . ويؤيد ذلك أن كل ما ذكره مع المرض ، أخبر عن وقوعه بتأً وجزماً ، لأنه أمر لا بد منه . وأما المرض ، فلما كان قد يتفق وقد لا ، أورده مقروناً بشرط إذا فقال (وَإِذَا مَرِضْتُ) وكان ممكناً أن يقول والذي يمرضني فيشفيني ، كما في غيره . فما عدل عن المطابقة المجانسة المأثورة ، إلا لذلك . انتهى .

قال أبو السعود : وأما الإماتة ، فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالإحياء ، بدءاً وإعادة ، وقد نيّطت أمور الآخرة جميعاً بها وبما بعدها من البعث نظمهما في سمط واحد في قوله تعالى (وَالَّذِي يُمَيِّنُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ) على أن الموت ، لكونه ذريعة إلى نيّله عليه الصلاة والسلام للحياة الأبدية ، بمزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٨٢] (وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

« وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ » أي الجزاء . وخطيئته ما كان يراها

هو صلوات الله عليه ويعدها بالنسبة لمقامه الكريم .

قال أبو السعود : ذكره عليه الصلاة والسلام هضماً لنفسه وتعلماً للأمة أن يجتنبوا المعاصي ويكونوا على حذر وطلب مغفرة لما يفرط منهم وتلافياً لما عسى يندر منه عليه السلام من الصغار ، وتنبهاً لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها ، فإن حاله عليه السلام ، مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته ، في الغاية القاصية ، حيث كانت بتلك المثابة . فما ظنك بحال أولئك المغمورين في الكفر ، وفنون المعاصي والخطايا؟

وتعليق مغفرة الخطيئة بيوم الدين، مع أنها إنما تغفر في الدنيا، لأن أثرها يومئذ يتبين، ولأن في ذلك تهويلاً له وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه، إن لم تغفر. وبعد أن ذكر عنايته تعالى به من مبدأ خلقه إلى بعثه، حمّله ذلك على مناجاته، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى:

[٨٣] (رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ)

[٨٤] (وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ)

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا » أى حكمة ، أو حكماً بين الناس بالحق ، أو نبوة ، لأن النبيّ ذو حكم وحكمة . « وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » أى وفقني لأتّظم في سلكهم ، لأكون من الذين جعلتهم سبباً لصلاح العالم وكال الخلق . « وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » أى ذكراً جميلاً بعدى ، أذكر به ويُقتدى بي في الخير كما قال تعالى (١) : (وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ *سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ . كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) .

قال القتيبي : وضع اللسان موضع القول على الاستعارة ، لأن القول يكون به ، وقد تسكنى العرب به عن الكلمة . وعليها حمل قول الأعشى (٢) :

إِنِّي أَتَتَّنِي لِسَانٌ لَا أَسْرُ بِهَا مِنْ عُلُوٍّ ، لَاعَجَبْتُ مِنْهَا وَلَا سَخَرْتُ

وجوز أن يكون المعنى : واجعل لي صادقاً من ذريتي ، يحدّد أصل ديني ويدعو الناس إلى ما كنت أدعوهم إليه من التوحيد . وهو النبيّ ﷺ . ولذا قال صلى الله عليه وسلم (٣) (أنا دعوة

(١) [٣٧ / الصفات / ١٠٨ - ١١٠] .

(٢) هو أعشى باهلة . والبيت مطلع قصيدته ، يرثى بها أخاه لأمه ، المنتشر .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ١٢٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)

عن العرباض بن سارية ، بهذا النص : قال رسول الله ﷺ : إني عبد الله الخاتم النبيين ، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته ، وسأنبئكم بأول ذلك . دعوة أبي إبراهيم ، وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأيت ، وكذلك أمهات النبيين يرين .

أبي إبراهيم) ، فالسلام بتقدير مضاف. أى صاحب لسان صدق. أو مجاز بإطلاق الجزء على الكل ، لأن الدعوة باللسان .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ)

[٨٦] (وَأُغْفِرْ لِأَبِي ، إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ)

« وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَأُغْفِرْ لِأَبِي » أى بهدائه وتوفيقه للإيمان . كما يلوح به تعليقه بقوله « إِنَّهُ وَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ » أى طريق الحق .

قال الحافظ ابن كثير . قوله (وَأُغْفِرْ لِأَبِي) الخ .. كقوله (١): (رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ) وهذا مما رجع عنه إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى (٢) (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) إلى قوله (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) وقد قطع تعالى الإلحاق فى استغفاره لأبيه ، فقال تعالى (٣) (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ) إلى قوله (وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ)

[٨٨] (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[٨٩] (إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

« وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ » أى لا تلحق بى ذللاً وهواناً يومئذ « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ آتَى اللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » أى لا يبق المرء من عذاب الله ماله ، ولو افتدى بملء الأرض ذهباً . ولا بنوه ، وإن كانوا غاية فى القوة . فإن الأمر ثمة ليس كما يمهدون

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤١] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] . (٣) [المتحنة / ٥] .

في الدنيا ، بل لا ينفع إلا الموافاة بقلب سليم من مرض الكفر والنفاق والحصال المذومة
والملكات المشؤومة .

قال الزمخشري :

وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون
سؤال مقرر لا مستفهم . ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر
ولا تسمع . وعلى تقليد آباءهم الأقدمين ، فكسره وأخرجه من أن يكون شبهة ، فضلاً أن يكون
حجة . ثم صور المسألة في نفسه ^(١) دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا ، فعظم شأنه
وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه ، إلى حين وفاته ، مع ما يرجى في الآخرة من رحمته . ثم أتبع
ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين ، وابتهل إليه ابتهاج الأوابين . ثم وصله بذكر يوم القيامة ،
وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من
الضلال ، وتغنى الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

ثم بين سبحانه أن الجنة تكون قريبة من موقف السعداء ، ينظرون إليها ويغتمطون

(١) أى بقوله (فإنهم عدو لي) على معنى أنى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة
للعُدُوّ وهو الشيطان . فاجتنبتها وآثرت عبادة من الخير كله فى يده . وأراهم بذلك أنها نصيحة
ينصح بها نفسه لينظروا فيقولوا: ما نصحننا إبراهيم إلا بما نصح به نفسه . فيكون ذلك أذعى لهم
إلى القبول لقوله . وأبعث على الاستماع منه . ولو قال (فإنهم عدو لكم) لم يكن بتلك المثابة ،
فتخلص عند تصويره المسألة فى نفسه إلى ذكر الله تعالى ، وبهذه الآيات الكريمة وأمثالها ردّ
على أبى العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمى فى زعمه أن القرآن خال من التخلص ، وهو زعم فاسد .
لأن حقيقة التخلص إنما هى الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره ، بلطفية تلائم بين الكلام
الذى أخرج منه والكلام الذى خرج إليه . وفى القرآن مواضع كثيرة من ذلك ، كما بسطه
ابن الأثير فى (المثل السائر) فراجع . اه مؤلفه .

بأنهم المحشورون إليها . والنار تكون بارزة مشكوفة للأشقياء بمرأى منهم ، يتحسرون على أنهم المسوقون إليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَأَزَلَّتْ أُلُجُنَّةٌ لِلْمُتَّقِينَ)

[٩١] (وَبُرِّزَتْ أُلْجِيمٌ لِلْغَاوِينَ)

[٩٢] (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ)

[٩٣] (مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ)

[٩٤] (فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ)

« وَأَزَلَّتْ أُلُجُنَّةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتْ أُلْجِيمٌ لِلْغَاوِينَ » أى الضالين عن طريق الحق الذى هو الإيمان والتقوى . وإيثار صيغة الماضى للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره . « وَقِيلَ لَهُمْ » توبيخاً على شركهم « أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ » أى يدفعون العذاب عنكم ، أو يدفعونه عن أنفسهم ، لأنهم وآلهتهم وقود النار . وهو قوله تعالى « فَكُفِّبُوا فِيهَا هُمْ » أى الآلهة « وَالْغَاوُونَ » أى وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم .

قال الزمخشري : والكسبة تكرير الكب - وهو الإلقاء على الوجه - جعل التكرير فى اللفظ دليلاً على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا أتى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر فى قعرها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ)

[٩٦] (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ)

[٩٧] (تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)

[٩٨] (إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

« وَجُنُودُ إبليسَ » أى متبعوه من العصاة « أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » أى فى العبادة، مع أنكم أعجز مخلوقاته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ)

« وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ » أى رؤسائهم، كما فى آية (١) (رَبَّنَا إِنَّا أُطْعِمْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ)

[١٠١] (وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ)

« فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ » أى من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء. لأنهم كانوا يعتقدون فى أصنامهم أنهم شفعاؤهم عند الله . وكان لهم الأصدقاء من شياطين الإنس . فما أغنوا عنهم شيئاً . كما قال تعالى (٢) (الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) قال الزخشرى: و(الحميم) من الاحتمام وهو الاهتمام، وهو الذى يهيمه ما يهيمك . أو من (الحامة) بمعنى الخاصة . وهو الصديق الخاص . وفيه معنى الحدة والسخونة . كأنه يحتدّ

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٦٧] . (٢) [٤٣ / الزخرف / ٦٧] .

ويحمي ، لحماية خليفه ورعايته ، والقيام بمهامه . وهذا هو الذى قيل (إنه أعز من بيض الأنوق) وإنه اسم بلا مسمى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٠٤] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

« فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً » أى رجعة إلى رجعة إلى الدنيا « فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * » إِنَّ فِي ذَلِكَ « أى فيما ذكر من نبأ إبراهيم « لَآيَةً » أى لحجة وعظة أراد أن يستبصر بها ويعتبر . وتقدم مقاله الزمخشري فى بديع سياقها « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ » أى أكثر قوم إبراهيم « مُؤْمِنِينَ * » وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » أى بإنزال الكتب وإرسال الرسل ، لدعوة خلقه إلى ما فيه صلاحهم وفلاحهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ)

[١٠٦] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٠٧] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٠٨] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٠٩] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١١٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١١١] (قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ)

« كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ » لأن تكذيب واحد كتكذيب الكل ، لاتفاقهم في أصول الشرائع . وهو نفي الشريك وإثبات الباري وتوحيده . أو لأن المراد بالجمع الواحد « إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَالُوا أَنْوْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ » يعنون من كان وضع النسب قليل النصيب من الدنيا . فإن الشرف لديهم بالمال والنسب . والحسب والنسب ، لا بالأخلاق الفاضلة . والملكات الكاملة . التي تحمل على تعرف الحق والتوجه إليه . ثم اعتناقه والمحافظة عليه . وأكثر ما تكون الأخلاق في مثل المستضعفين . إذا قام عليهم ناصح أمين . إذ لا مال يطفئهم . ولا جاه يلبسهم . وذلك من العناية الربانية فيهم .

قال الزمخشري : وهكذا كانت قریش تقول في أصحاب رسول ﷺ . وما زالت أتباع الأنبياء كذلك ، حتى صارت من سماتهم وأماراتهم . ألا ترى إلى هرقل حين سأل أباسفيان عن أتباع رسول الله ﷺ فلما قال (ضعفاء الناس) قال (ما زالت أتباع الأنبياء كذلك) وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » جواب عما أشير إليه من قولهم إنهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة . أي وما على إلا الظاهر والله يتولى السرائر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ)

[١١٤] (وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ)

[١١٥] (إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

[١١٦] (قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَنْوُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ)

[١١٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ)

[١١٨] (فَأَفْتَحْ يَدَيَّ وَيَنفُخْ فِيَّ مِنْ أَعْيُنِ الْمُؤْمِنِينَ)

« إِن حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي » أى محاسبهم على أعمالهم ، إلا على ربى المطلع على ضمائرهم
 « لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ * قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ
 يَنْوُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ » أى المشتمومين أو المرميين بالحجارة « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي
 كَذَّبُونِ * فَأَفْتَحْ يَدَيَّ وَيَنفُخْ فِيَّ » أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا .

قال الزمخشري : الفتححة : الحكومة . والفتحاح : الحاكم . لأنه يفتح المستغلق . كماسمى
 فيصلاً لأنه يفصل بين الخصومات . وفى (التهذيب) : الفتح أن تحكم بين قوم يختصمون
 إليك . قال الأشعر الجعفي^(١) .

أَلَا مَنْ مُبْلَغٌ عَمراً رَسُولاً فَإِنِّي عَنِ فُتَاخَتِكُمْ غَنِيٌّ
 « وَنَجِّبِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَأَنجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ)

[١٢٠] (ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ)

[١٢١] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

(١) استشهد به فى اللسان بالصفحة رقم ٥٣٨ من المجلد الثانى (طبعة بيروت)

[١٢٢] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٢٣] (كَذَّبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ)

[١٢٤] (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٢٥] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٢٦] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٢٧] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٢٨] (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ)

« فَانجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ وَفِي لُفْلُكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً »

أى فيما فعلنا بهم لعبرة وعظة لمن بعدهم « وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ عَادٌ » وهم قوم هود عليه السلام « الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ » أى مكان مرتفع ، بكسر الراء وفتحها « آيَةً » أى علامة « تَعْبَثُونَ » أى يبنائها لا للحاجة إليها . بل لمجرد اللعب واللهو وإظهار القوة . ولهذا أنكر عليهم ذلك . لأنه تضييع للزمان ، وإتاعاب للأبدان فى غير فائدة . واشتغال بما هم فى غنى عنه . وبما فى الشغف به انصراف عن الجد فى العمل ، وصرف للأموال فى غير ما خلقت له ، من النظر للنفس والأهل والدين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ)

« وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ » أى منازل وقصورا « لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » أى راجين الخلود

في الدنيا إشارة إلى أن عملهم ذلك ، لقصر نظرهم على الدنيا والإعجاب بالآثار ، والتباهى بالمشيدات والغفلة عن أعمال المجددين البصيرين بالعواقب ، الصالحين المصلحين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

«وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ» أى تأخذون بالعرف والشدة ، كبرا وعتوا . يقال (بطش به) أى أخذه بالعنف والسطوة ، وتناوله بشدة عند الصولة ، يصفهم عليه السلام بالقسوة وعدم الرحمة والشفقة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٣٢] (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ)

[١٣٣] (أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَيْنِ)

[١٣٤] (وَجَنَّتِ وَعِيُونَ)

«فَاتَّقُوا اللَّهَ» أى فيما أمركم به من التوبة والإيمان «وَأَطِيعُوا» وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِالنَّعْمِ وَبَيْنِ * وَجَنَّتِ وَعِيُونَ» أى فاشكروا نعماءه ، وارعدوا بتقواه آلاءه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ» أى إن لم تقوموا بواجب شكرها «عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» أى في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ)

« قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ » أى : فإننا لن نزعوى عما

نحن عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] (إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ)

« إِنَّ هَذَا » أى ما هذا الذى نحن عليه « إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ » أى عادتهم . كانوا

يدينون به ويعتقدونه . فنحن بهم مقتدون . أو ما هذا الذى جئنا به لإعادة الأولين . كانوا

يلقفون مثله .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ)

[١٣٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ

مُؤْمِنِينَ)

[١٤٠] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٤١] (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ)

[١٤٢] (إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٤٣] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٤٤] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٤٥] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ)

[١٤٦] (أَتَتْرُكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ)

« وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ » أى على ما نحن عليه من الأعمال « فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ »

أى بريح صرصر « إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَاتَتَّقُونَ * إِنْ أَنْتُمْ رَسُولٌ آمِنٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْمَلَائِكَةِ * أَتَتْرُكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ » أى من الموت والذوال والمذاب .

قال الزمخشري: يجوز أن يكون إنكاراً لأن يتركوا مخلصين في نعيمهم لا يزالون عنه. وأن يكون تذكيراً بالنعمة في تخليمة الله إياهم وما يتنعمون فيه من الجنات وغير ذلك ، مع الأمن والدعة. وقوله تعالى (فِي مَا هَاهُنَا) أى فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم . ثم فسره بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

[١٤٨] (وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ)

[١٤٩] (وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا كَرِيمًا)

[١٥٠] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ)

[١٥١] (وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ)

[١٥٢] (الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ)

[١٥٣] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ)

« فِي جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَهَا هَٰضِمٌ » أي لطيف لين « وَتَنَحُّتُونَ مِنْ الْجِبَالِ يَبُوتًا فَرِهِينَ » أي بطرين . وقرئ (فرهين) وهو أبلغ . وقيل : فاره من (فره) بالضم ، بمعنى حذق . وفره صفة من (فره) كفرح ، بمعنى أشر واطر « فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَلَا تَطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ » أي الذين سحرروا حتى غلب على عقولهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] (مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٥٥] (قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ)

[١٥٦] (وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[١٥٧] (فَمَقَرُّوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ)

[١٥٨] (فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٥٩] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٦٠] (كَذَبَتْ قَوْمٌ لوطِ الْمُرْسَلِينَ)

[١٦١] (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٦٢] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٦٣] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٦٤] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٦٥] (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ)

[١٦٦] (وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ)

« مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بَيِّنَاتٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شَرْبٌ * أَي نَصِيبٌ مِنَ الْمَاءِ * وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ * أَي فَاقْتَنَعُوا بِشَرْبِكُمْ وَلَا تَرَاهُمْ جَاهِلًا عَلَى شَرْبِهَا * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * أَي لِعَظْمِ مَا تَسِيئُونَ . قَالَ الرَّخْشَرِيُّ : عَظْمُ الْيَوْمِ لِحُلُولِ الْعَذَابِ فِيهِ ، وَوَصَفَ الْيَوْمَ بِهِ أَبْلَغَ مِنْ وَصْفِ الْعَذَابِ . لِأَنَّ الْوَقْتَ إِذَا عَظِمَ بِسَبَبِهِ ، كَانَ مَوْقِعَهُ مِنَ الْعَظْمِ أَشَدَّ * فَعَقَرُوهَا فَاصْبِحُوا نَدِيمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ * أَي الْمَوْعُودُ ، وَهُوَ أَنَّ أَرْضَهُمْ زَلَزَلَتْ زَلْزَلَةً شَدِيدَةً ، وَجَاءَتْهُمْ صَيْحَةٌ عَظِيمَةٌ * إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * أَي مَجَاوِزُونَ حَدَّ الْحِكْمَةِ فِي تَرْكِ عَمَلِ الْحَرْثِ ، الْحَافِظِ لِلنَّسْلِ ، الَّذِي بِهِ حَفِظَ النَّوْعَ الْبَشَرِيَّ ، وَإِثَارَ مَا لَمْ يَخْلُقْ لِذَلِكَ ، شَرَّهَا فِي الشَّمُوهَةِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَمَكَاحِفَةِ لِتَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ الرَّبَانِيَّةِ .

ونقل السيوطي في (الإكليل) عن محمد بن كعب القرظي، أن معنى الآية: تذرون مثله

من المباح . فاستدل بذلك على إباحة وطء الزوجة في دبرها . انتهى .

وخالفه غيره . فاستدل بها على حظره . وبيانه كما في (الكشاف) و(حواشيه) أن (من) إما تبين لما خلق ، أو للتبويض . ويراد به العضو المباح منهن ، تعريضاً بأنهم كانوا يفعلون ذلك بنسائهم . ومن الوجه الثاني يستدل على حظر إتيان المرأة في غير المأثي . وتقريره في (الاتصاف) أن (من) لو كانت بياناً لكان المعنى حينئذ على ذمهم بترك الأزواج . ولاشك أن ترك الأزواج

مضموم إلى إتيان الذكران. وحينئذ يكون المنكر عليهم الجمع بين ترك الأزواج وإتيان الذكران، لأن ترك الأزواج وحده منكر. ولو كان الأمر كذلك، لكان النصب في الثاني متوجهاً على الجمع. وكان إما الأفضح أو المتمعن. وقد اجتمعت العامة - عامة القراء - على القراءة به مرفوعاً ولا يتفقون على ترك الأفضح إلى ما لا مدخل له في الفصاحة، أو في الجواز أصلاً. فلما وضح ذلك تبين أن هذا المعنى غير مراد. فتعين حمل (من) على البعضية. فيكون المنكر عليهم أمرين. كل واحد منهما مستقل بالإنكار: أحدهما إتيان الذكران. والثاني مجانبة إتيان النساء في المأثى، رغبة في إتيانهن في غيره. وحينئذ يتوجه الرفع لفوات الجمع اللازم على الوجه الأول، واستقلال كل واحد من هاتين العظيمتين بالنكير. انتهى.

ومثله من دقيق الاستنباط الذي يوسع المدارك ويفتح للتفهم أبواباً، وإن أمكن أن يقال إن سياق الآية في الملام لهم، أعم مما ذكره ومن غيره. والله أعلم.

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (قَالُوا لَيْنَ لِمَ تَنْتَهِي يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ)

« قَالُوا لَيْنَ لِمَ تَنْتَهِي يَلُوطُ » أى عن تقبيح أمرنا « لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ » أى من قرابتنا عنفاً، إذ لا تجانسنا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ)

[١٦٩] (رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ)

« قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ » أى المبغضين غاية البغض. أى فأنا أرغب في الخروج عن دياركم، والراحة من مجاورتكم، لبغضى لعملكم، الآيل بكم إلى الدمار وخراب الديار. ولذا أتبعه بقوله « رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ » أى من شؤمه وغائلته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ)

[١٧١] (إِلَّا عَجُوزًا فِي الْعَبْرِينَ)

[١٧٢] (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ)

« فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ وَأَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا » وهي امرأته . كما بينت في آيات
« فِي الْعَبْرِينَ » أي مقدرًا كونها من الباقيين في العذاب . لأنها كانت راضية
بعمل قومها .

لطيفة :

قال الناصر في (الاتصاف) : كثيراً ما ورد في القرآن، خصوصاً في هذه السورة ، العدول
عن التعبير بالفعل إلى التعبير بالصفة المشتقة . ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع . كقول
فرعون ^(١) (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ) وقولهم ^(٢) (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ
مِنَ الْوَاعِظِينَ) وقولهم ^(٣) (لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ) وقوله ^(٤) (إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِّنْ
الْقَائِلِينَ) وقوله تعالى ^(٥) في غيرها (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) وكذلك ^(٦) (ذَرْنَا
نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ) وأمثاله كثيرة . والسرف في ذلك ، والله أعلم ، أن التعبير بالفعل ، إنما
يفهم وقوعه خاصة . وأما التعبير بالصفة ، ثم جعل الموصوف بها واحداً من جمع ، فإنه يفهم
أمراً زائداً على وقوعه . وهو أن الصفة المذكورة ، كالسمة للموصوف ثابتة الملقوق به . كأنها
لقب . وكأنه من طائفة صارت كالنوع المخصوص المشهور ببعض السمات الرديئة . واعتبر
ذلك لو قلت (رضوا بأن يتخلفوا) لما كان في ذلك مزيد على الإخبار بوقوع التخلف منهم لا غير .

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٩] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٣٦] .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١١٦] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٦٨] .

(٥) [٩ / التوبة / ٨٧] . (٦) [٩ / التوبة / ٨٦] .

وانظر إلى المساق وهو قوله (رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ) كيف ألحقهم لقباً رديئاً ، وصيرهم من نوع رذل مشهور بسمة التخلف ، حتى صارت له لقباً لاحقاً به . وهذا الجواب عام في جميع ما يرد عليك من أمثال ذلك . فتأمله واقدره قدره « ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ » أى أهلكناهم أشد إهلاك وأفظعه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا ، فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ)

[١٧٤] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٧٥] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

[١٧٦] (كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا » أى عظيم غير معهود ، هلكوا به « فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ » وهم أهل مدين . وهم من زعم أنهما أمتان أرسل إليهما شعيب عليه السلام : فإنهم أمة واحدة كانوا يقطنون (مدين) أضيفوا إليها تارة وأخرى إلى ما حوتها من الآية ، وهى الأشجار الكثيرة الملتفة المجتمعة فى مكان واحد . قال الحافظ ابن كثير : والصحيح أنهم أمة واحدة . وصفوا فى كل مقام بشىء . ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان ، كما فى قصة مدين سواء بسواء . فدل ذلك على أنهما أمة واحدة .

تنبيهه :

قال أبو عمرو : وكتب فى جميع المصاحف (لَيْكَةِ) فى الشعراء و(ص) ، بلام من غير ألف قبلها . وفى الحجر وق (الأَيْكَةِ) ولذا قرأ نافع وابن كثير وابن عامر بلام مفتوحة ، من غير همز قبلها ولا بعدها . ونصب التاء غير منصرف . والباقون (الأَيْكَةِ) بإسكان اللام وهمز

وصل قبله ، وهمزة قطع مفتوحة بعده ، وجر التاء . وهمزة وصل ووقفا على أصله . وقراءة الأولين استشككها أبو علي الفارسي وغيره ، بأنه لا وجه للفتح . لأن نقل حركة الهمزة لا يقتضى تغيير الإعراب من الكسر إلى الفتح . أى فإن العرب تقول فى الأحمر (الجر والجر) وإثبات الألف واللام فى (الأبيكة) فى سائر القرآن يدل - كما قال الزجاج - على أن حذف الهمزة منها التى هى ألف الوصل ، بمنزلة قولهم (الجر) وقرئ (ليسكة) بالجر على الإضافة فى غير السبع . لكن قال الزخشرى : هو الوجه . ومن قرأ بالنصب ، وزعم أن ليسكة ، بوزن ليلة ، اسم بلد ، فتوهم قاد إليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وفى سورة (ص) بغير ألف . وفى المصحف أشياء كتبت على خلاف قياس الخط المصطلح عليه . وإنما كتبت فى هاتين السورتين على حكم لفظ الالفاظ . كما يكتب أصحاب النحو - لأن ولولى - على هذه الصورة ، لبيان لفظ المخفف . وقد كتبت فى سائر القرآن على الأصل . والقصة واحدة . على أن (ليسكة) اسم لا يعرف . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ)

[١٧٨] (إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ)

[١٧٩] (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[١٨٠] (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٨١] (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ)

« إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ » أى أتموه « وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ » أى حقوق الناس بإعطائهم ناقصاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ)

[١٨٣] (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ » أي بالميزان السوي « وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ »

أي لا تنقصوهم حقوقهم . قال الزخشرى : وهو عام في كل حق ثبت لأحد ، أن لا يهضم . وفي كل ملك أن لا يعصب عليه مالكة ، ولا يتحيف منه ، ولا يتصرف فيه ، إلا بإذنه تصرفاً شرعياً . « وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أي بالقتل والغارة وقطع الطريق والجور والظلم وأكل أموال الناس بالباطل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ)

[١٨٥] (قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ)

[١٨٦] (وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ)

« وَأَتَقُوا » الله « الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ » أي : وذوى الجبلّة الأولين ،

وهم من تقدمهم من الخلائق « قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لِمَنِ الْكَذِبِينَ » أي فيما تدعيه من النبوة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ)

[١٨٨] (قَالَ رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ)

« فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ » قطعاً منها . قرىء (كِسْفًا) بسكون السين

وتحريكها . وكلاهما جمع (كسفة) « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ » أى من الكفر والمعاصى ، وبما تستوجبون عليها من العذاب ، بإسقاط كسف أو غيره مما يشاؤه إذا جاء أجلكم ، فإليه الحكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٩] (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ، إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ)
 « فَكَذَّبُوهُ » أى فاستمروا على تكذيبه ولم يتوبوا « فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ »
 إِنَّهُ وَكَانَ عَذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ » أى لجلول العقاب فيهم ، من جنس ما سأله من إسقاط
 السماء قطعاً عليهم . فقد أظلمت سحابة أطبقت عليهم ، وأظلمت الجوف فوقهم ، وغشيمهم العذاب
 وأحاط بهم . و (الظلّة) بالضم لغة ، الناشئة ، وما أطبق وستر من فوق .

قال الحافظ ابن كثير : ذكر تعالى صفة إهلاكهم فى ثلاثة مواطن . كل مواطن بصفة
 تناسب ذلك السياق . فى (الأعراف) ذكر أنهم ^(١) (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جِثْمِينَ) وذلك لأنهم قالوا ^(٢) (لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَعِيبٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا
 أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا) فأرجفوا نبي الله ومن اتبعه (فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ) وفى سورة هود قال ^(٣)
 (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) ذلك لأنهم استهزؤوا بنبي الله فى قولهم ^(٤) (أَصَلَاتُكَ
 تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَكِيمُ الرَّشِيدُ)
 قالوا ذلك على سبيل التهمك والازدراء . فناسب أن تأتيهم صيحة تسكتهم فقال (وَأَخَذَتِ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ) وههنا قالوا (فَاسْقُطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ) الآية ، على وجه التعنت
 والعداوة . فناسب أن يحقق عليهم ما استبعدوا وقوعه (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ) انتهى

(١) [٧ / الأعراف / ٩١] . (٢) [٧ / الأعراف / ٨٨] .

(٣) [١١ / هود / ٩٤] . (٤) [١١ / هود / ٨٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ)

[١٩١] (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» أى على أخذه العصاة بمقتضى أعمالهم «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» أى الغالب على تعذيب من شاء بما شاء ، الرحيم ، بإرسال الرسل وإنزال الكتب ، لئلا يكون للناس على الله حجة .

قال الزمخشري : فإن قلت : كيف كرر في هذه السورة ، في أول كل قصة وآخرها ، ما كرر؟ قلت : كل قصة منها كتنازل برأسه . وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها . فكانت كل واحدة منها تدلى بحق في أن تفتتح بما افتتحت به صاحبها ، وأن تختتم بما اختتمت به . ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس ، وتثبيتاً لها في الصدور . ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ؟ وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب ، وأرسخ في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان . ولأن هذه القصص طرقت بها أذان وُقِرُّ عن الإنصات للحق ، وقلوب غُلِّفَتْ عن تدبره ، فكوثر بالوعظ والتذكير ، وروجعت بالترديد والتكرير . لعل ذلك يفتح أذنا ، أو يفتح ذهننا ، أو يصقل عقلا طال عهده بالصقل أو يجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ . اه . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[١٩٣] (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ)

[١٩٤] (عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ)

[١٩٥] (بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)

« وَإِنَّهُ » أى ما ذكر من الآيات الناطقة بالقصص المحكية ، أو القرآن المتضمن لها « لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » أى منزل منه حقاً « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ » أى جبريل عليه السلام « عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ » أى منتظماً فى سلك أولئك المشهورين بتلك الزية الجميلة ، والمنقبة الفاضلة . وهى الرسالة الإلهية بالإنداز ، إزالة للأعداء « بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ » أى واضح المعنى جلى المفهوم ، ليكون قاطعاً للعدو ، مقياً للحجة ، دليلاً إلى المحجة . والجار متعلق بـ(نزل) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۱۹۶] (وَإِنَّهُ وَ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ)

[۱۹۷] (أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ)

« وَإِنَّهُ وَ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ » أى فى كتبهم . مع أنه صلوات الله عليه لم يصحب أهلها ولم يدرسها . فكفى بذلك شهيداً على صدقه « أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ » أى علامة على تنزيله الحق « أَنْ يَعْلَمَهُوْا عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ » أى فيجدون مصداقه فى زبرهم التى يدرسونها ، كما قال تعالى (۱) « وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمْنَا بِهِ ءِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مَسْلُومِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[۱۹۸] (وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ)

[۱۹۹] (فَقَرَأَهُوْا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مَسْمُومِينَ)

[۲۰۰] (كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ)

[۲۰۱] (لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ)

(۱) [۲۸ / القصص / ۵۳] .

[٢٠٢] (فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[٢٠٣] (فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ)

[٢٠٤] (أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ)

[٢٠٥] (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ)

[٢٠٦] (ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ)

[٢٠٧] (مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ)

[٢٠٨] (وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ)

[٢٠٩] (ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ)

« وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ وَعَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ سَٰمِعِينَ »
 أى ولو نزلناه بنظمه البديع على بعض الأعجم الذى لا يحسن العربية ، فقرأه عليهم قراءة فصيحة ، انفق لسانه بها ، خرقا للعادة ، لكفروا به كما كفروا . ولتمحلوا لجهودهم عذرا . ولسموه سحرا ، لفرط عنادهم « كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ » أى مكنا هذا العناد والإباء عن الإيمان به ، فى قلوبهم وأنفسهم . وقررناه فيها « لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ » أى وهو ما هو ، عياذا به منه « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ » أى من طوال الأعمار وطيب المعاش « وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَىٰ » أى رسل يندرونهم لأجل الموعظة والتذكرة « وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ » أى فنبغتهم بالعذاب قبل الإنذار ، فإن ذلك محال فى حكمة الحكم العدل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٠] (وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ)

[٢١١] (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ)

[٢١٢] (إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُؤُونَ)

[٢١٣] (فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

« وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ » ردّ ملازمه المشركون من أن التنزيل الكريم من قبيل ما تلقيه الشياطين على الكهنة ، بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين . وقوله تعالى « إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ » أى الاستماع عن الملائكة « لَمَعَزُؤُونَ » لانتهاء الاستعداد لقبول فيضان أنوار الحق عليهم ، لخباثة نفوسهم بالذات ، فهم مرجومون مبعدون عن الأنوار القدسية والبراهين السبوحية « فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ » فى الدارين ، عذاب تعديد الوجهة ، واضطراب الفكر ، وضعف الشبهة ، وتوهين العقل فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١٤] (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[٢١٥] (وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[٢١٦] (فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّى بَرىءٌ مِّمَّآ تَعْمَلُونَ)

[٢١٧] (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ)

[٢١٨] (الَّذى يَرىكَ حِينَ تَقُومُ)

[٢١٩] (وَتَقَلَّبَكَ فى السَّجْدِينَ)

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » أى الأذنين . وإنه لا يخلص أحدا منهم إلا إيمانه بربه عز وجل . وقد قال عليه الصلاة والسلام^(١) لما نزلت عليه : (يا فاطمة ابنة محمد! يا صفيّة ابنة عبد المطلب ! يا بنى عبد المطلب ! لا مملك لكم من الله شيئا . أنقذوا أنفسكم من النار) وقد بسط الأحاديث الواردة فى ذلك ، ابن كثير . فراجعه . وقوله تعالى « وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » أى لئّن جانبك لهم . مستعار من حال الطائر . فإنه إذا أراد أن ينحط خفض جناحه « فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّى بِرِىْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِى يَرَنُكَ حِينَ تَقُومُ » أى من النوم إلى التهجّد « وَتَقَلِّبُكَ فِى السَّجِدِينَ » أى المصلين . أى تصرفك فيما بينهم بالقيام والركوع والسجود ، إذا أمتهم . يعنى : يراك وحدك ويراك فى الجمع . والتوصيف بذلك للتذكير بالعناية بالصلاة ليلا وجمعا وفرادى . أو معنى الآية : لا يخفى عليه حالك ، كلما قت وتقلبت مع الساجدين ، فى كفاية أمور الدين . أو هى كناية عن رعايته صلوات الله عليه ، والعناية به . كقوله تعالى^(٢) (وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢٠] (إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

[٢٢١] (هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ)

[٢٢٢] (تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ)

« إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » أى لما تقوله وبما تنويه « هَلْ أَنْبَأَكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنْزَلُ الشَّيَاطِينُ » أى (تنزل) وهو استثناء مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله ﷺ بعد امتناع تنزلهم بالقرآن « تَنْزَلُ عَلَىٰ كُلِّ آفَاكٍ أَثِيمٍ » أى كذاب فى قوله ، يصرف الكلام من وجه إلى آخر ، ولا يبالي بذلك . لأنه أثيم كثير الإثم والفجور فى فعله .

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٥ - كتاب التفسير ، ٢٦ - سورة الشعراء ، ٢ - باب

وأنذر عشيرتك الأقربين ، حديث رقم ١٣٢٠ ، عن أبى هريرة (٢) [٥٢ / الطور / ٤٨] .

وحيث كان المقام النبويّ منزها عن ذلك ، اتضح استحالة تنزيلهم عليه .
قال القاشانيّ : لأنّ تنزيلهم لا يكون إلا عند استعداد قبول النفوس لنزولها ، بالمناسبة في الخبث والكيد والمكر والعدو والخيانة وسائر الرذائل . فن تجرد عن صفات النفس ، وترقى إلى جناب القدس ، وتمورت نفسه بالأنوار الروحية ومصاييح الشهب السبوحية ، وأشرق عقله بالاتصال بالعالم الأعلى ، فلا يمكن للشياطين أن يتنزلوا عليه ، ولا أن يتلقفوا المعارف والحقائق والشرائع . فإنهم معزولون عن استماع كلام الملكوت الأعلى ، مرجومون بشهب الأنوار القدسية . وقوله تعالى (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ) تقرير لقوله تعالى (وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ) لأن الإفك والإثم من لوازم النفوس الكدرة الخبيثة المظلمة السفلية ، المستمدة من الشياطين بالمناسبة ، المستدعية لإلقائهم وتنزلهم بحسب الجنسية . انتهى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٣] (يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ)

[٢٢٤] (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ)

[٢٢٥] (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ)

[٢٢٦] (وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ)

« يُلْقُونَ » أي الأفا كون « السَّمْعَ » أي إلى الشياطين وأوهامهم ووساوسهم
« وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ » أي فيما يتكهنون به ، وفيما يحكونه عن الشياطين . وقوله تعالى
« وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ » استئناف مسوق لإبطال ما قالوا في حق القرآن الكريم ،
من أنه من قبيل الشعر ، وأن رسول الله ﷺ من الشعراء ، ببيان حال الشعراء المنافية لحاله
عليه الصلاة والسلام . بعد إبطال ما قالوا إنه من قبيل ما يلقي الشياطين على الكهنة من
الأباطيل ، بما مرّ من بيان أحوالهم المضادة لأحواله عليه الصلاة والسلام . والمعنى أن الشعراء

الذين يركبون الخيالات والمزخرفات من القياسات الشعرية والأكاذيب الباطلة ، سواء كانت موزونة أم لا ، فإنهم يتبعهم (أى يجاريهم ويسلك مسلكهم ، ويكون من جملتهم) الغاؤون الضالون عن السنن ، لاغيرهم من أهل الرشد ، المهتدين إلى طريق الحق ، الداعين إليه .
قاله أبو السعود .

وقوله تعالى « أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ » استشهاد على أن الشعراء إنما يتبعهم الغاؤون ، وتقرير له . أى ألم تر أنهم فى كل وادٍ من أودية الخيال يهيمون على وجوههم ، لا يقفون عند حدّ معين ، بل يركبون للباطل والكذب وفضول القول كل مركب . دينهم الهجاء ، وتمزيق الأعراض ، والقدح فى الأنساب ، والنسب^(١) بالحرم والغزل والابتهار . ومدح من لا يستحق المدح ، والغلو فى الثناء والهجاء .

لطيفة :

فى ذكر الوادى والهيام ، تمثيل لذهابهم فى شعب القول وفنونه وطرقه وشجونه . قال ابن الأثير : استعمار الأودية للفنون والأعراض من المعانى الشعرية التى يقصدونها . وإنما خص الأودية بالاستعارة ، ولم يستعمل الطرق والمسالك ، أو ما جرى مجراها - لأن معانى الشعر تستخرج بالفكرة والروية ، والفكرة والروية فهما خفاء وغموض . فكان استعارة الأودية لها أشبه وأليق .

« وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » أى مما يتبجحون به من أقوال وأفعال لم تصدر منهم ولا عنهم ، كناية عن أنهم يكذبون غير مباليين بما يستتبعه من اللوائم . أى فكيف يتوهم أن يتبعهم فى مسلكهم ذلك ، ويلتحق بهم وينتظم فى سلكهم ، من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الأمور المذكورة ، واتصف بمحاسن الصفات

(١) النسب: ذكر محاسن الحسان، وإظهار التعشق والهيام بها. والغزل: التغزل وذكّر صفات النساء، وذكر الميل لهن. والابتهار: الكذب بادعاء الوصول إلى محبوبته. اه. خفاجى.

الجليلة ، وتخلق بمكارم الأخلاق الجميلة ، وحاز جميع الكلمات القدسية ، وفاز بجملته الملكات الأنسية ، مستقراً على النهج القويم ، مستمراً على الصراط المستقيم ، ناطقاً بكل أمر رشيد ، داعياً إلى صراط العزيز الحميد ، مؤيداً بمعجزات قاهرة ، وآيات ظاهرة ، مشحونة بفقون الحكم الباهرة ، وصنوف المعارف الزاهرة ، مستقلة بنظم رائق ، أعجز كل منطق ماهر ، وبكت كل مفلح ساحر ! قاله أبو السعود .

تنبیه :

قال الحافظ ابن كثير : اختلف العلماء فيما إذا اعترف الشاعر في شعره بما يوجب حداً . هل يقام عليه بهذا الاعتراف أم لا ؟ لأنهم يقولون ما لا يفعلون - على قولين : وقد ذكر محمد بن إسحق ومحمد بن سعد^(١) في (الطبقات) والزيير بن بكار في كتاب (الفساحة) أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی الله عنه استعمل النعمان بن عدی بن نضلة على ميسان ، من أرض البصرة . وكان يقول الشعر ، فقال :

أَلَا هَلْ أَتَى الْحَسَنَاءُ أَنْ خَلِيلَهَا
إِذَا شِئْتُ غَنَّتْنِي دَهَائِقُ قَرِيَةٍ
فَإِنْ كُنْتُ نَدْمَانِي فَبِالْأَكْبَرِ اسْقِنِي
لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ
بِمَيْسَانَ يُسْقَى فِي زُجَاجٍ وَحَنَّتَمِ
وَرَقَاصَةٌ تَحْشُو عَلَى كُلِّ مَبْسَمِ
وَلَا تَسْقِنِي بِالْأَصْغَرِ الْمُثَلَّمِ
تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدَّمِ

فلما بلغ ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضی الله عنه ، قال : إي والله ! إنه ليسوؤني ذلك . ومن لقيه فليخبره أني قد عزلته . وكتب إليه عمر (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم . غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير) . أما بعد فقد بلغني قولك :

لَعَلَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَسُوؤُهُ
تَنَادُمْنَا بِالْجَوْسِقِ الْمُتَهَدَّمِ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ، بالصفحة رقم ١٤٠ من الجزء الرابع (طبعة بيروت)

في ترجمة عدی بن نضلة .

وايم الله ! إنه ليسوؤنى ذلك . وقد عزلتلك) .

فلما قدم على عمر . بكته بهذا الشعر . وقال : والله ! يا أمير المؤمنين ! ماشربتها قط . وما ذاك الشعر إلا شيء طفح على لساني . فقال عمر : أظن ذلك . ولكن ، والله ! لا تعمل لي عملاً أبداً ، وقد قلت ما قلت .

فلم يذكر أنه حده على الشراب ، وقد ضمنه شعره . لأنهم يقولون ما لا يفعلون . ولكن ذمه عمر ولامه على ذلك وعزله به .

وحكى الزمخشري عن الفرزدق^(١) أن سليمان بن عبد الملك سمع قوله :

فَيْتِنَ بِجَانِبِي مَصْرَعَاتٍ وَبِتُّ أَفْضُ أَعْلَاقَ الْخِتَامِ

فقال : قد وجب عليك الحد . فقال : يا أمير المؤمنين ! قد درأ الله عنى الحد بقوله (وَأَنْتَهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ) .

ثم استثنى تعالى الشعراء المؤمنين الصالحين ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢٧] (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا

مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ)

« إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا » أي في شعرهم ، بأن كان غالبه في توحيد الله والثناء عليه والحكمة والموعظة والآداب الحسنة « وَانْتَصَرُوا » أي بشعرهم على عدوهم بأن هجوه « مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا » أي فكان هجاءهم على سبيل

(١) انظر في ديوانه الصفحة ٨٣٥ قصيدته في مدح هشام بن عبد الملك ، ومطامها :

الَسْتَمُّ عَائِجِينَ بِنَا لَعْنَا نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الْخِيَامِ

الانتصار ممن يهجوهم ، جزاءً وفاقاً . قال الله (١) (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلِمَ) وقال تعالى (٢) (فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ مِثْلَ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ) قال ابن كثير : وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لحسان (٣) : (اهجم ، أو قال هاجهم ، وجبريل معك) ويروى الإمام أحمد (٤) عن كعب بن مالك أنه قال للنبي ﷺ : إن الله عز وجل قد أنزل في الشعر ما قد علمت ، وكيف ترى فيه ؟ فقال النبي ﷺ : إن المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه . والذي نفسى بيده ! لكان ماترمونهم به نضح النبل .

تنبيهات :

الأول - قال في (الإكيل) : في قوله تعالى (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) الآية ، ذم الشعراء ، والمبالغة في المدح والهجو وغيرها من فنونه ، وجوازه في الزهد والأدب ومكارم الأخلاق وجواز الهجو لمن ظلم ، انتصاراً . انتهى .

وحكى الزمخشري عن عمرو بن عبيد ، أن رجلاً من العلوية قال له : إن صدرى لي جيش بالشعر . فقال : فإيتمك منه فيما لا بأس به ؟ والقول فيه : أن الشعر باب من الكلام ، محسنه كحسن الكلام وقبيحة كقبيح الكلام .

الثاني - ذكر ابن إسحاق أنه لما نزلت (وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ) جاء حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ليكون . قالوا : قد علم الله حين أنزل

(١) [٤ / النساء / ١٤٨] . (٢) [٢ / البقرة / ١٩٤] .

(٣) أخرجه البخاري في : ٥٩ - كتاب بدء الخلق ، ٦ - باب ذكر الملائكة ، حديث رقم ١٥١٧ ، عن البراء .

وأخرجه مسلم في : ٤٤ - كتاب فضائل الصحابة ، حديث رقم ١٥٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده بالصفحة رقم ٤٥٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبي)

هذه الآية أنا شعراء . فتلا النبي ﷺ (إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) قال : أنتم . قال ابن كثير : لكن هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار ؟ وفي ذلك نظر . ولم يرو فيه إلا مراسلات لا يعتمد عليها . والله أعلم . ولكن الاستثناء دخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم ، حتى يدخل فيه من كان متلبسا من شعراء الجاهلية بدم الإسلام وأهله ، ثم تاب وأناب ورجع وأقلع ، وعمل صالحا ، وذكر الله كثيرا ، في مقابلة ما تقدم من الكلام السيء . فإن الحسنات يذهبن السيئات . وامتدح الإسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه . كما قال (١) عبد الله ابن الزبيرى ، لما أسلم :

يارسولَ المليكِ إن لسانى رَاتِقٌ مَفْتَقْتُ ، إِذْ أَنَا بُورُ
إِذْ جَارَى الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَيِّ وَمَنْ مَالَ مَيْلَهُ مَثْبُورُ

وكذلك أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ فهو ابن عمه وأكثرهم له هجوا . فلما أسلم لم يكن أحد أحب إليه من رسول الله ﷺ . وكان يمدح رسول الله ﷺ . انتهى . وقوله تعالى « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » تهديد شديد ووعيد أكيد ، لما فى (سيمعلم) من تهويل متعلقه . وفى (الذين ظلموا) من إطلاقه وتعميمه . وفى (أى منقلب ينقلبون) من إبهامه وتهويله . كأنه لا يمكن معرفته ، وقد رأوا ما حاق بهم فى الدنيا . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

(١) انظر سيرة ابن هشام ، الصفحة رقم ٦١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي)